

تطبيق علم التاريخ على المجتمع المغربي

تقديم :

ليس موضوع هذه الدراسة كتابة تاريخ المغرب، ولكن مجرد محاولة لتطبيق المنهج العلمي لتفسير التاريخ على بلادنا، وإبراز الخطوط العريضة لأهم تصورات مجتمعاتنا، وإعطاء الدليل على أنه يجب دائما الأخذ بعين الاعتبار خصائص وواقع كل مجتمع، وتطبيق المفاهيم العلمية مع مراعاة مآذره وتجنب الطريقة الأكاديمية.

وكخطوط عريضة لهذه المحاولة، يمكن أن نقسم التطور التاريخي للمجتمع المغربي إلى أربعة مراحل.

المرحلة الأولى : مرحلة المعاشية البدائية

تمتد هذه المرحلة زمنيا منذ بداية وجود الإنسان المغربي إلى الفتح الإسلامي. ولقد عرف هذا المجتمع تطورا مماثلا لتطور المجتمع البدائي كما مر معنا، لأنه يمكن أن نذكر هنا خصائص هذه المرحلة :

أ) وسائل الإنتاج :

كانت هذه الوسائل بدائية بسيطة، كما كانت الجماعات تعتمد في معيشتها على صيد الحيوانات البرية منها والبحرية أولا، ثم تربية المواشي ثانيا.

ب) علاقات الإنتاج :

الوحدة الأساسية الأولى هي القبيلة أو العشيرة التي تكون وحدة متجانسة متكاملة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا حيث كانت كل جماعة تستوطن منطقة معينة يبيدها جميع وسائل الإنتاج (أراضي، مراعي، أشجار، أدوات الشغل، الصيد...) لا يحتكرها أي فرد.

ولا تزال بقايا مثل هذا المجتمع في بلدنا إلى يومنا هذا (أراضي الجماعات).

ج) تركيب المجتمع :

استنادا إلى علاقات الإنتاج السائدة، لم تكن هناك طبقات (لاعبيد ولا أسياد ولا أقطاع) إلا أنه يجب الإشارة إلى وجود رؤساء قبائل أو عشائر الذين كانوا بالدرجة الأولى زعماء حربيين في فترات المعارك ضد الأجانب والمستعبدين والقاتحين... الخ.

د) تطور وسائل الإنتاج :

في أواخر هذه المرحلة، وقبل الفتح الإسلامي، عرفت وسائل الإنتاج تطورا مماثلا لتلك التطورات التي حصلت في المجتمعات البدائية :

- تطورت الفلاحة حيث بدأت تنتج الزيوت زياد على الحبوب.
- نمت تربية المواشي، وأخذت تنفصل عن الفلاحة تدريجيا.
- ظهرت توزيع العمل نظرا لتوسيع نطاق الإنتاج.

بالرغم من كل هذا التصور، فإن المجتمع المغربي لم يمر من مرحلة العبودية كما هو الشأن لدى المجتمعات التي وجدت داخلها بوادر أولية لشأن المجتمع العبودي (توزيع العمل، تمويقات الإنتاج تصاعد سلطة رؤساء القبائل) والتي تطورت فيما بعد إلى مجتمعات عبودية.

لقد تأثر المغرب بعوامل خارجية دفعت به الى تجربة غريبة اذا لم نقل أنها فريدة من نوعها :
مجتمع العبودية والاقتصاد .

المرحلة الثانية : مرحلة العبودية والاقتصاد

تمتد هذه المرحلة تقريبا من الفتح الاسلامي الى ظهور الاستعمار، امتزج فيها المجتمع بشريا بعناصر جديدة كان لها تأثير هام في قلب الهياكل الاقتصادية والاجتماعية، وأهم هذه العناصر هي :

- عنصر الرومان والفيقيين ٠٠٠ الخ .
- عنصر العرب الفاتحين ، وخاصة قبائل بني هلال ٠
- عنصر الأفارقة السود والحراطين .
- العناصر الواردة من الأندلس .
- عنصر اليهود الوادين من المشرق وأوربا .

ولقد أثر هذا " التدخل الأجنبي " على "مجتمع المعاشة البدائية " بحكم ما جلب معه من وسائل إنتاج وعادات وتقاليد جديدة .

خصائص هذه المرحلة :

(أ) وسائل الإنتاج :

عرفت وسائل الإنتاج تطورا ملموسا وتوسعا ملحوظا في نطاق الإنتاج ، زيادة على تربية المواشي والفلاحة، ان ظهرت حرف متنوعة كالحدادة والجارة وصناعة الجلود والأواني والنسيج والصباغة .

(ب) علاقات الإنتاج :

لقد أدى هذا النمو السريع في وسائل الإنتاج والتوزيع في العمل ، وكذلك ما حمل الأجنبي معه من تقاليد وعادات ٠٠٠ الخ ، أدى الى ظهور الملكية الفردية ، خاصة في الأراضي ~~التي~~ التي الذي جعل علاقات الإنتاج تتغير تبعاً لذلك، وتنشأ علاقات اجتماعية بين الفئة المالكة للأرض والفئات التي تشتغل فيها . وهكذا تركز النظام القبلي وتوسع مداه ، وما على شكل عصبية قبيلة كبرى ، ومناقصات اقتصادية وسياسية ، التي لعب فيها رؤساء القبائل دورا أساسيا مكسبهم من توسيع نفوذهم ، وفرض أنفسهم كـ ~~مفسدين~~ حربيين وملاكين كبارا . ويظهر الملكية الفردية ، ظهرت فئة اجتماعية جديدة (الفلاحين الفقراء ، الخماسة الخبازة) ، فيرأى أنه لا يمكن الحديث هنا عن "الاقطاعية" بالمعنى المتعارف عليه في أوربا كمرحلة من مراحل تطور المجتمعات ، حيث أنه بالرغم من الاستغلال الذي كان الاقطاعي يمارسه على الخماسه ، فإنه لم يكن يملكه كما كان يملك الأرض .

ومن جهة أخرى ، يمكن القول : بأن هذه المرحلة قد تعتبر مرحلة تعايش بين العبودية والنظام الاقطاعي حيث كان الأمراء والاقطاعيون يتاجرون في العبيد كجارتهم في السلع والبضائع .

مع العلم أن بعض القبائل في الجبال خاصة ، احتفظت بتقاليدها الأصلية في الإنتاج . كما نلاحظ بروز الدولة " كأداة في يد الحكام الاقطاعيين للسيطرة على المجتمع ، وتسخير إنتاجه لفائدة مصالحهم الطبقية . وهكذا ، تمكنت عصبية قبلية من أن تنتمي وتتغلب على القبائل الأخرى وتفرض نفسها على مستوى الدولة . وقد أشار ابن خلدون في مقدمته الى طبيعة الدولة التي كانت تتركز أساسا على العصبية القبلية .

(ج) تركيب المجتمع :

قد أدت العلاقات الجديدة في الانتاج الى تصنيف المجتمع للطبقات التالية :

— الطبقة المستغلة ، وهي طبقة الاقطاعيين والحكام ورجال الدولة والملاكين الكبار .

— طبقة بورجوازية صغيرة تتألف من صغار التجار والحرفيين .

— الطبقات المستغلة ، وتكون من الفلاحين الفقراء والخماسة والخبازة والعبيد السود ، وأنصار

العبيد وتحملون كلهم وطأة الاقطاع .

ولقد عبروا عن سخطهم بعدة انتفاضات " محلية " غالبا ما اكتست طابعا عبيديا قبلها فرضها الاصلاح

وابعاد " الفاسدين " من السلطة ، ولكن سرعان ما تبين أن الاصلاح المنشود لم يتحقق ، وأن طبيعة الحكم

لم تتغير .

وخلاصة القول : عرف تاريخ المغرب خلال هذه المرحلة الطويلة ستدول كبرى قامت على أساس العائلة

الواحدة ، دامت خلالها الجماهير الشعبية من قساوة الحكم الفردي المطلق بالرغم من انتفاضاتها المتكررة

ومحاولاتها المتعددة .

المرحلة الثالثة : الاقطاعية الرأسمالية

عرف تاريخ المغرب في أواخر المرحلة الثانية وبداية المرحلة الثالثة انتفاضات عديدة نهضت أركان الدولة

الاقطاعية وأضعفتها . وأهم هذه الانتفاضات :

انتفاضة الهيبة وماء العينين .

انتفاضة موحى وحمو الزياني ... الخ .

وهي الخصوص ثورة عبد الكريم الخطابي التي لم تكن ضد الاقطاع والاستعمار فحسب ، ولكنها

أعطت البديل : حكما شعبيا .

تمتد هذه المرحلة من بداية الاستعمار الى الاستقلال .

نشاهد مرة أخرى أن المجتمع المغربي لم يتطور بصفة طبيعية ، ولم يؤد الصراع الطبقي والتطور

في وسائل الانتاج ^{وإنتاجها} إلى خلق نواة المجتمع الرأسمالي لولا التدخل الاجنبي (الاستعمار) الذي

لعب دورا أساسيا في تغيير الهياكل الموجودة .

(أ) وسائل الانتاج :

حتى يتمكن الاستعمار من استنزاف خيرات البلاد ، أتى بوسائل انتاج جديدة بالنسبة للمجتمع

المغربي التي مكنه من فرض وجوده سياسيا بينما لم يكن الفلاحون يعرفون الا الزراعة البدائية ، أستعمل

المعمرون وسائل الري الحديثة " السدود " والآلات الزراعية من جرارات وغيرها والوسائل العصرية

لانتقاء الحبوب وفلاحة الأشجار ...

حصل نفس المطعم الشيء بالنسبة للصناعة الحرفية التي عوضها الاستعمار بصناعة رأسمالية حديثة

تعتمد على تحويل المواد الأولية وتصديرها الى الخارج .

أما في ميدان التجارة ، فقد أتى الاستعمار بوسائل للنقل كان لها دور فعال في تطوير وسائل

الانتاج : (السكك الحديدية ، الشاحنات ، البواخر ...) .

(ب) علاقات الانتاج :

نلاحظ أولا أن الاستعمار لم يغير جدريا العلاقات القائمة (علاقات الاستغلال ما بين الاقطاعيين والخماسة والخبازة) ، ولكنه بادر بتقوية الاقطاعيين ، وسلك سياسة القسود (الكلاوي ، الكتانسي ، ...) وكيفية موازنة ، شرع في تلقيح المجتمع بواسطة نواة المجتمع الرأسمالي التي تجسد اقتصاديا فيما يسمى " بالقطاع العصري " الذي هو في الحقيقة مجموعة هياكل رأسمالية ~~القطاعية~~ تنمو وتتقوى بواسطة استنزاف خيرات البلاد ككل .

أما القطاع التقليدي فلم يكن مستقلا عن القطاع العصري ، اذ كان هذا الأخير ينمو ~~بواسطة~~ بواسطة استغلال الأول .

وهكذا ، فلقد ترتب عن هذه الهياكل الرأسمالية الجديدة تحويل مهم في علاقات الانتاج ، وظهور طبقات جديدة في المجتمع المغربي .

وهكذا برزت تاريخيا الطبقة العاملة : العمال الزراعيون في ضيعات المعمرين ، والعمال الصناعيون في المصانع ، كما برزت الى الوجود الطبقة البورجوازية لأنها لم تكن تتمتع بالذراع الوطني ، نظرا لأن الاستعمار حصر دورها في السمسرة والوساطة في عملية استغلال خيرات البلاد .

ونلاحظ أن نواة هذه البورجوازية " الكمبرادورية " كانت موجودة قبل الحماية الرسمية ، ولعبت دورا أساسيا في الوساطة بين " القصر " والاستعمار .

يمكننا إذن أن نقول أن الاستعمار وما أتى به من هياكل رأسمالية لعب دورا أساسيا في ظهور الطبقة العاملة والطبقة البورجوازية ، وذلك دون أن يغير الهياكل الاقطاعية الموجودة (مع العلم أن الاستعمار حارب العبودية التي أختفت تدريجيا مع المرحلة الثالثة . فبالرغم من استمرار وجود العبيد ، فإنهم أصبحوا يلعبون دورا محصورا داخل قصور الاقطاعيين دون أن يكون لهم دورا مباشرا في الانتاج) ، وسيترتب عن كل هذا علاقات متنوعة ومعقدة في الانتاج .

(ج) تركيب المجتمع :

يمكن تصنيف المجتمع المغربي خلال فترة الحماية الى الطبقات التالية :

- الفلاحون الفقراء : يمثلون نحو 80% من مجموع السكان .
- العمال (الزراعيون والصناعيون) يمثلون 7% .
- البورجوازية الصغيرة (صغار الموظفين ، صغار التجار ، والصناع) يمثلون 9% .
- الطبقة الاقطاعية :
- البورجوازية الكمبرادورية . ويمثلان معا تحالف طبقي يحكم البلاد ظاهريا (الحاكم الحقيقي هو الاستعمار) ، ونسبتهما داخل المجتمع 4% .
- البورجوازية الاستعمارية (البوروازية الفلاحية في البوادي ، والبورجوازية الصناعية في المدن) .

أما من الناحية " الديناميكية " ، فلقد ترتب عن العلاقات في الانتاج المذكورة صراع طبقي حاد بين الاستعمار والقطاع والبورجوازية الكمبرادورية من جهة ، وبقية الطبقات من جهة أخرى . تلك الطبقات التي توحدت كلها ضد الاستعمار ، وذلك للأسباب الموضوعية المترتبة عن علاقات الاستغلال والتعسف الموجودة بين الاستعمار من جهة والطبقات التالية من جهة أخرى :

- الفلاحون الذين أقتصب أراضيهم من طرف المعمرين .
- العمال الذين يعيشون يوميا الاستغلال الرأسمالي البشع في الضيعات والمعامل .
- البورجوازية الصغيرة والصناع الصغار خاصة الذين ضرب الاستعمار قاعدتهم الاقتصادية لأن انتاجهم لم يكن في مستوى التنافس مع المواد العصرية الاستعمارية (مواد البلاستيك ...) .
- نواة البورجوازية الوطنية التي كانت تصع لتحل محل الاستعمار على المستوى الوطني . وكان موقفها هو الحصول على هذا المنصب بواسطة مجاملة الاستعمار أحيانا والضغط عليه أحيانا أخرى .

وهكذا ، توحد النضال ضد الاستعمار وسط هذه الجبهة العريضة التي لعبت داخلها الجماهير الشعبية الدور الأساسي في المواجهة والتضحية في سبيل التخلص من الاستعمار ، بينما طمست مرحليا التناقضات البقية الثانوية الموجودة بين الفلاحين والقطاعيين ، وبين العمال والبورجوازية الوطنية ... الخ .

أما البورجوازية الوطنية ، فلقد تمكنت من ركوب الموجة ، ونصبت نفسها كقائد سياسي لهذا التحالف فلقد الاستعمار ، وبدافع من مصالحها (خلافا للاستعمار ، وحصر النضال الجماهيري في " المصلحة الوطنية " حتى لا تهدد مصالحها في المستقبل) ، فلقد عملت على تغذية الحركة الوطنية بالشعارات العاصفية الصرفة (كشعار رجوع الملك ، كشعار الحفاظ على الدين ... انظر الدراسة حول الحركة الوطنية) .

وهكذا ، تطور الصراع بين " الشعب المغربي " من جهة ، والاستعمار من جهة أخرى ، تطورا حاسما أضر على اثره الاستعمار الى اهداع وسيلة استغلال مطابقة : الاستعمار الجديد .